المشكلة اليهودية والعالم

للأستاذ عدنان الكيالي

لعل أعظم الكوارث التي حلت بالعالم العربي منذ مئات السنين هي هذه الكارثة المروعة التي حلت به بانشاء دولة يهودية في بقعة من صميم كيانه الأساسي فهرنه هرا عنيفا وخلفته حائرا مذهولا، ثم ما لبثت الشعوب العربية أن أفاقت على الحقيقة القاسية فكادت تفقد الثقة في نفسها وفي زعامتها بل وفي المثل العليا التي كانت تترسمها وتحيا في ظلها . ولعل هذه الحالة النفسية السيئة التي يكاد يتردى فيها الشعب العربي أمر من الكارثة نفسها وأنكى واعلها من الأهداف الرئيسية التي استهدفها اليهود وأعدوا لها عدتهم وساروا بها جنبا إلى جنب مع استعداداتهم المادية المباشرة. على أننا بحمد الله لا نزال من المؤمنين بامكانيات هذه الأمة العظيمة وبطاقتها الكبرى الكامنة فيها بانتظار زوال هذه المحنة التي تجتازها . ولا شك أن الوجوم الذي قابلت به الأمة هذه النهاية المريرة وما يبدو أنه ينطوي من توثب وتحفز دليل على ما تنطوي عليه من مواهب ومزايا ، وتدبر بثورة فكرية شاملة تتناول الاوضاع الراهنة من أساسها ، ولعلها تكون فاتحة عهد جديد في تاريخ هذه الأمة ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

والبحث في هذه الكارثة يدعو المرء الى تأمل أحوال اليهود وعلاقاتهم بالعالم وسر ما يتمتعون به من نفوذ واسع في معظم أنحاء الكرة الأرضية لا يتفق مع مظاهر ضعفهم وتشردهم في أنحاء المعمورة . وإنك لتلاحظ بدهشة مدى ما يستشعره نحوهم البشر على العموم من بغضاء وكراهية لم تستطع أن تحول بينهم وبين النفوذ الواسع والسيطرة الفعلية . ولقد كانت هذه الظاهرة رفيقة لهم في كافة عصور التاريخ وفي مختلف البلدان والاقطار وفي ظل معظم الأنظمة السياسية ، وذلك بفضل ما يملكونه من ثروات واسعة يجمعونها بطرق شتى تمنع سائر البشر من مجاراتهم فيها مثلهم العليا الخلقية والانسانية والدينية . وهنا يجدر بنا أن نتساءل عن سر سكوت العالم بأسره عن بقاء هذه الثروة الهائلة في أيديهم وخصوصا في العصور التي لم تكن مصادرة الثروات فيه بالشيء المستهجن العجيب ...

ومن الواضح أن معظم سكان الكرة الأرضية يحملون لليهود أمر شعور البغضاء والكراهية، وينظرون باستنكار واشمئزاز إلى الطرق الملتوية التي يجمعون بها الاموال الطائلة بغير حق ، وهم مع ذلك يسكتون على هذا المكروه صاغرين ، تارة باسم حرية العمل وحيازة المال في ظل الديموقراطية وتارة لعوامل أخرى سياتي ذكرها . وبعض هذه الشعوب الديموقراطية ، نفسها لم تتورع عن سوم العبيد في أمريكا أسواق الخسف والعذاب وحرمانهم أبسط حقوق الانسان، وبعض هذه الشعوب نفسها فرضت أنظمة وقيودا على الهنود والشرقيين في أفريقيا الجنوبية بحيث جردوا تجريدا تاما من الحقوق الطبيعية الانسانية له السيطرة والنفوذ . والامر في الظاهر بسيط التفسير فاليهود في الامم الديموقراطية كما أسلفنا يتمتعون بموجب نظم تلك البلاد بحرية العمل وحرية حيازة المال ويجمعون ثروات واسعة بما طبعوا عليه من قدرة على جمع الثروة بمختلف الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، ويستغلون بالتالي هذه الثروة في فرض سيطرتهم على الصحافة ووسائل الدعاية وغير ذلك ... وهم في البلاد الديكتاتورية يتوصلون إلى أغراضهم بجمع المال أيضا بطرق دنيئة خسيسة بحيث يتقربون بهذا المال إلى رجال الحكم والنفوذ، وبالتالي يسخرونهم في أغراضهم وبسائسهم المختلفة ، ولكن أليس عجيبا أن هذا العالم بانظمته المختلفة كثيرا ما ضاق ذرعا ببعض عناصر البشر ففرض عليهم قيودا جردتهم من أبسط حقوقهم الطبيعية رغم ضعف الاسباب والبواعث التي أدت إلى ذلك وتقاعس هذا العالم نفسه عن فرض مثل هذه القيود على اليهود ؟ أما كان باستطاعة دول العالم بامرها ، لو شاءت ، أن تحذو حذو هتلر فيما اتخذه من تدابير تؤدي في النهاية لو بقي له الأمر إلى خنق نفوذهم مهما بذلوا من نشاط .

فلماذا لم يتبع العالم مثل هذه الأساليب نحو اليهود وآثر أن يكبت ما يستشعره من مرارة نحو هؤلاء الطفيليين .

ليس الجواب عن هذه النقطة واضحا ميسورا . ولكن إذا خطر ببالك أن توجه مثل هذا السؤال إلى مسيحي متدين فسيكون

جوابه بلا شك أن هذه هي إرادة الله، وهذا هو ما أرادته التوراة. والذي يتتبع تاريخ بني اسرائيل ويلاحظ مدى ارتباط تاريخهم بتاريخ الديانات المختلفة ولاسيما الديانة المسيحية يلاحظ أن الدعاية والتهليل لبني اسرائيل يسود روحها ونصوصها بشكل عجيب. ويبدو أن اليهود كتدبير معاكس لروح البغضاء والكراهية السائدة ضدهم قد أفلحوا في بث سمومهم في مختلف مذاهب وعقائد البشر. والمتتبع لتاريخ اليهود والمحتك بهم يعلم حق العلم أن اليهودي يهودي قبل كل شيء آخر، مهما كانت نزعته ومهما اعتنق في الظاهر من مبادىء وعقائد؛ فهو لذلك يتوسل لخدمة بني قومه بأية وسيلة، فلا يتورع عن التظاهر باعتناق الديانة الإسلامية إذا اقتضت المصلحة ذلك، وإذا شعر أن بإمكانه بث أفكار معينة في تقاليد ذلك الدين من شأنها أن تعود على اليهود بالنفع.

وفي التاريخ الإسلامي كثير من اليهود اعتنقوا الإسلام وبطن بأنهم مسؤولون عن اختلاق كثير من الأحاديث التي يراد بها تفكيك عرى الإسلام من جهة، وبث روح العطف على اليهود إذا أمكن من جهة أخرى.

أما الماسونية والشيوعية والفوضوية وما شابه ذلك من المذاهب السياسية والاجتماعية الحديثة فلا شك عندي بأن اليهود قد قاموا بدور كبير في إيجادها ونشرها، وذلك بقصد نشر الأفكار بين الناس بضرورة التساوي بين البشر في الحقوق بحيث لا يكون فرق بين يهودي وغير يهودي الخ . . . . يضاف إلى ذلك أنهم ما داموا قد فقدوا وطنهم وتفككت عرى مقوماتهم القومية فلا بأس بأن يفككوا روح القومية الوطنية أينما وجدت. وما داموا عنصرا مضطهداً فلا بأس بأن يبثوا وينشروا أفكارا من شأنها إزالة الفروق العنصرية. وما داموا موتورين لهذا العالم الظالم — حسب رأيهم — فليؤلبوا فيه الرعاع على الطبقات الخاصة وينفسوا بذلك ما يعانونه من الكبت نحو العالم بأسره.

وعلى الجملة فإن الفضل في سيطرة اليهود وسعة نفوذهم ليس في الحقيقة راجعا إلى ثرواتهم الواسعة، لأن هذه الثروات يمكن حصرها ووقفها عند حد، ولأنه يمكن لأية دولة وضع الأنظمة والأساليب التي تكفل القضاء تجاريا واقتصاديا على فئة من الناس يهمها القضاء عليها، وإنما الخطر كل الخطر هو في أن العالم لا يستطيع أن يضع مثل هذه الأنظمة التي تؤدي إلى القضاء على اليهود ماليا. ذلك لأنه يتأثر بالعقائد الدينية والأفكار المختلفة التي ينشرها اليهود أنفسهم والتي تحول بين العالم وبين تنفيذ مثل هذه الأنظمة؛ أي أن الخطر ناشيء مما ينشره اليهود من الأفكار والعقائد التي يسممون بها عقول البشر بحيث أن تكون أشبه بشبكة من الأسلحة الفتاكة تظللهم وتقيهم شر خصومهم، على حين يبقون هم — أي اليهود — على أفكارهم وعقليتهم التاريخية غير متأثرين بالأفكار الجديدة التي خلقوها هم أنفسهم. وإلى أن يتحرر العالم من هذه العقائد والأفكار اليهودية فإن تكتب له النجاة من شرور اليهود ونفوذهم. وإذا أفلح اليهود في بث أفكارهم في وسط من الأوساط — وإنهم لناجحون في ذلك فعلا في معظم أنحاء العالم — أمنوا العدوان عليهم فينصرفون عندئذ بأساليبهم الجهنمية إلى جمع الثروات الواسعة فيدعمون بذلك كيانهم ويثبتونه. ولقد ساعدهم على ذلك كله ما تبرره لهم ديانتهم من اتباع الوسائل الدنيئة في الحياة.

واليهودية دين عجيب في العالم، أو هو الدين الوحيد الذي يعتقد اتباعه بأنه خاص بهم ووقف عليهم، وإن الله خلقهم لسيادة هذا البشر وتسخيره في سبيل أغراضهم ومصالحهم؛ فهم لذلك لا يرحبون بأن يدخل في دينهم أحد لأنهم لا يحبون أن يشاركهم في المغانم التي وعدهم الله بها. والسلم مثلا مهما بلغ به التعصب الديني يرحب بأن يشاركه في هذه السعادة — حسب اعتقاده — كل البشر لأنه يؤمن بأن الدين إنما أنزل لخير البشر أجمعين. وكذلك الحال بالمسيحي فإنه لاعتقاده بأن المسيحية دين نزل ليسعد ويهدي البشر عامة فهو يتوق إلى اشراك غيره من البشر في هذه السعادة ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومتى أصبح غير المسيحي مسيحيا فقد أصبحت له نفس الحقوق الأخرى التي يتمتع بها المسيحيون ويسعدون باشراكه فيها. وهذا لعمري أقل ما ينتظر من دين سماوي محترم. ومن هنا ينشأ خلاف أساسي بين اليهود من جهة وبين سائر البشر — مسلمين ومسيحيين — من جهة أخرى؛ فإن بني البشر جميعا مهما اختلفت مذاهبهم السياسية وغاياتهم الدنيوية لا يستطيعون أن يتجردوا من انسانيتهم تجردا تاما، ولابد لتسكين هذه الخوالج الانسانية من اعتناقهم لمذاهب دينية

تهدف فى النهاية إلى اشتراك العالم بأسره فى السعادة والخلاص . هذا ما يؤمن به المسلم وما يعتقده المسيحى وما يحبه كل البشر بعضهم لبعض عدا اليهود الذين كما أسلفنا يعتقدون فى إله يصطفيهم من دون البشر ويقصر عليهم المغانم والامتيازات ، وهو إذ يبسط عليهم كل هذا النعيم المنتظر يحتمهم يحرمان غيرهم منه .

وبعد فان شيئا يحمل هذه العقيدة وينظر إلى البشر هذه النظرة لا يمكن أن ينسجم مع سائر البشر بحال من الأحوال . وانك لتقابل رجالا من المسلمين متألين فى تعصبهم ولكنهم كلما غالوا فى تمسكهم بشعائر الدين شعرت بتمكن العواطف الانسانية منهم وتعينهم على الله أن ينتشر الاسلام فيشمل كافة البشر ليظلهم أجمعين بالسعادة والاطمئنان . وهذا هو الحال مع المسيحيين وسائر أهل المذاهب والمعتقدات الدينية؛ فالبشر المسيحى المثالى فى عقيدته الدينية إنما يجوب الأرض ويطوف بها رغبة منه فى اسعاد أكبر عدد من البشر وهدايته — من وجهة نظره — فهو من هذه الوجهة انسان كامل الانسانية. وهذا هو عكس الحال مع اليهود تماما؛ فكلما كان اليهودى أكثر رغبة فى اقصاء غير اليهودى كان أكثر تدينا وأكثر إيمانا بوجوب تسخير بنى البشر لليهود . ويعتقد اليهود انهم كلما أمعنوا فى ذلك كان عملهم ادعى لمرضاة الله عنهم . ولو تصفح القارىء كتابهم المقدس لوجد على ذلك أدلة كثيرة ، ففى معاصرتهم لأوربا عند خروجهم من مصر إلى فلسطين يأمرهم الرب بأن لا يبقوا على ولد صغير وامرأة عجوز من أعدائهم بل يذبحونهم جميعا ، فتأمل . . ومن قبل ذلك يأمرهم عند مغادرتهم مصر بأن يسرقوا ما تصل اليه أيديهم من حلى النساء المصريات، أى أن الله سبحانه وتعالى يحلل لهم أموال ودماء غيرهم من البشر وغير ذلك وذلك كثير . بيد انى لا أعجب من اعتناق اليهود لمثل هذه العقيدة بقدر ما أعجب من أن كثيرين من غير اليهود وممن يفرض بأنهم مثقفون متنورون يؤمنون بأن الله عز وجل يمكن أن ينزل مثل هذه الأوامر لا لغاية ردعية أو عبرة معقولة وإنما ليمنح شعبه المختار بسفك دماء بنى البشر الآخرين . وحسبك بالله يسوغ مثل جواز الجمع بين مثل هذه الروح الشريرة وبين الروح النبيلة السامية التى تتجلى فى دعوة السيد المسيح عليه السلام إلى نشر السلام والوئام والحب بين بنى البشر أجمعين .

ولست أشك لحظة فى أن الدرس اليهودى تناول كل مرافق حياة البشر رغبة منهم فى أن يخففوا من غلواء مقاومة البشر لهم وقد نجحوا فى ذلك نجاحا ملموسا ، فاينما رأيت اضطهادهم يزداد فى بقعة من الأرض رأيت عقائد جديدة تنتشر فى تلك البقعة من شأنها أن تؤدى إلى التخفيف من هذا الشعور نحوهم ؛ ففى روسيا انتشرت المبادىء الشيوعية التى لا تعتبر العنصر أو الدين مقياسا للتمييز بين الناس ، وكأنما جاءت هذه العقيدة علاجا للتخفيف من الشعور المر الذى كان الروس يحملونه لليهود . وفى القرون الوسطى حينما انكشفت للناس أعمال اليهود القذرة من ربا واستغلال واحتكار انتشرت إلى جانب ذلك الروح المسيحية المتدينة بين الفرسان ومختلف طبقات الشعب فى ولا شك أن المتمسكين بشكليات الدين وحرفيته من المسيحيين لا يستطيعون أن يتحرروا من العطف على الشعب الذى تدور كل حوادث التوراة حوله . وكأنما لم يوجد البشر فى هذا العالم إلا ليستمتع ببحث شؤون هذا الشعب المصطفى وتتبع مراحل تقربه من الله أو ابتعاده عنه . وكأنما لا يستطيع الله أن يرسل أنبياء وهادين إلا من هذا الشعب المختار. ولا شك عندى فى أن تقوى أهل القرون الوسطى والحالة التى يرونها تحيط بنى اسرائيل فى كتبهم المقدسة هى التى حالت بينهم وبين استئصال شأفة اليهود والقضاء عليهم فى أوربا خلال تلك القرون . فهذه الحالة التى تحيطها كثير من الكتب المقدسة فى العالم باليهود ، وهذه الروح التى تبثها مختلف العقائد السياسية الحديثة من ديموقراطية وشيوعية وفوضوية والتى تشترك جميعها فى عدم اعتبار الدين والعنصر أساسا للتمييز بين البشر ؛ هذه العقائد فى نظرى هى المسؤولة الأولى عن الابقاء على اليهود وإحاطتهم بضروب الحماية المختلفة وتركهم يعيثون فى الأرض فسادا برغم ما يعهده العالم بأسره فيهم من صفاقة للطبائع والنزائر الانسانية . وإنى أعتقد جازما بان العالم لن يصيب الراحة والهدوء ولن يسوده السلم والاستقرار ما دام اليهود عنصراً فعالا فيه ، وما دام بين الناس من لا يزالون ينخدعون بهم وينظرون اليهم نظرتهم لسائر أبناء البشر الآخرين. ولا مفر للبشر من أتباع أحد وجهين لا ثالث لهما لوضع حد لمفاسد اليهود وشرورهم ، فاما